الباب الخامس

حاجة الإنسانية إلى هذه الدعوة

(١) هل يمكن الإنسانية أن تحيا آمنة بدونها ؟
(٢) وهل أوفت الأنظمة القائمة بحاجة الإنسانية ؟
(٣) التجربة أقوم دليل .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾ [سورة طه : ١٢٣ - ١٢٧]

(١) هل يمكن الإنسانية أن تحيا آمنة بدونها ؟

للإجابة على هذا التساؤل ، نود أن نبصر الحقيقة على ضوء ما نعلمه عن الأمور الآتية لننصف الأمر من جميع جوانبه :

أولا : مبدأ الإنسان ونهايته .

ثانيا : العوامل التي تؤثر في حياته ومماته .

ثالثا : إذا توقفت دقات القلب وجاء الأجل فهل يمكن أي مخلوق كائنا من كان أن يمد في بقائه أو يمنحه الحياة ؟

رابعا : إلى أين المصير والناس يتركون الدنيا ولا يعودون إليها ؟

خامسا : هل يمكن مع هذا أن نعد المشكلة مشكلة طعام وشراب وكفى أو أنها مشكلة مصير ، مصير الإنسان الذي يجب أن تعالج قضاياه كلها على أساس العناية بعاجله وآجله .

سادسا : إذا قيل أن المستقبل - أي ما بعد الموت - مجهول (في تقدير

بعض الناس) وجاء الدين وقال : إنه « معلوم » فما نتيجة هذا المجهول أو المعلوم ؟ وما مدى التأثير الذي ينعكس به العلم أو الجهل في واقع الحياة ؟

سابعا : إن قيل أن الإنصراف عن الآخرة يجعلنا نركز الاهتمام على الدنيا ولا نهمل أمرها ، والإسلام يقول : إن الإنصراف عن الآخرة يضيع الدنيا والآخرة معًا ، فما القول الفصل في هذه القضية ؟

ثامنا : ما الأمن الحقيقي والسلام الصادق الذي يجب أن تتطلع إليه الإنسانية ؟

تاسعا : ما مشكلة الحياة الأساسية التي تتولد عنها جميع المشكلات الفرعية ، والتي تذهب بأمن الناس وتزعزع دعائم السلام في الأرض ؟

وأخيرا ما علاج هذه المشكلة وهل نجده في غير الإسلام ؟

أما عن الإنسان فنحن نعلم بداهة أن له بداية ونهاية ، يقطع بهذا الواقع المشاهد ، نعلم يوم مولده ومنه ندرك بداية خلقه ، ونعلم يوم مماته فلا نملك إلا أن نواريه بالتراب ، وأي تفسير مادي لهذه القضية عاجز عن الإحاطة بها وعن بيان دوافعها وغايتها : لم الخلق ؟ يعجز التفسير المادي أن يجيب ، وإن أجاب فما خرج عن حدود المادة ، أي عن حدود الظلام والجمود .

وأين المصير ؟ يعجز التفسير المادي أن يجيب ، وإن أجاب فما خرج عن حدود المادة أي « أن الإنسان هلك ووري بالتراب » وليس بعد موته حياة يكون معها ثواب أو عقاب ، ومنطق المادة البليد دائما : ﴿ مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ [سورة يس : ٧٨] .

هل يمكن أن نقول : إن الإنسان خلق ليقيم فترة محدودة مكدودة في الدنيا يطعم ويلبس ويعاشر من يعاشر ثم يذهب وكفى ؟

وهل يمكن أن يكون هذا الخلق العظيم لهذه المهمة الحيوانية التي لا تعد في صورتها شهوة الطعام والشراب ثم الهلاك ؟

إن الإسلام يرفع العبث عن هذه القضية ويعد فهمها على هذه الصورة منكرا

لا يقره منطق الفكر أو هدى الفطرة كما لا تقره حقيقة الخلق وسنة العدل .

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [سورة المؤمنون : ١١٥ ، ١١٦] .

الإسلام يقطع بهذه الحقائق التي لا يمكن أن يستقيم أمر شيء على الإطلاق إلا بتقريرها .

١ – الله خلق الإنسان وهو يملك حياته وموته وإليه المرجع والمصير .

٢ – الدار هنا دار بلاء واختبار ، والآخرة حساب وجزاء : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [سورة الإنسان : ٢ ، ٣] ، ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ [سورة الملك : ١ ، ٢] ، ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [سورة الكهف : ٧] .

والإسلام بهذا التقرير القاطع يفسر لنا كثيرا من المبهمات التي لا تستقيم أبدا مع حكمة الخلق وأحكام الصنع وخلق الإنسان ، يفسر لنا قضية إنسان بات مظلوما وخرج من دنيا الناس محترق الكبد مشوي الفؤاد ، فالعدل يقتضي أن ينصب الميزان وأن يتم الحساب ، وأن يقع الجزاء ، وهذا ما قرره الإسلام وإلا كان عبث الخلق أوسع مدى من أن تتصوره أذهان البشر ، وكان الإنسان غير ملوم إن هو أسف بغرائزه عن الحيوان ، ولكن الإسلام يحسم القضية ويحكم فيها بتكريم الإنسان يجعله مسئولا عن عمله ملاقيا جزاءه : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٤٧] والتقرير بهذه الصورة مع كونه يكرم الإنسان إلى أبعد حدود التكريم ، ويميزه بالمسئولية والجزاء عن سائر المخلوقات يفسر أيضا حكمة الخلق وأن الإنسان خلق لغاية ينشدها ويتعلق بها ، وهي التي تبرز معها خصائصه وتنطلق مواهبه ، وغايته : الحياة ، الحياة بمعناها الباقي الممتد ، الحياة بأصالتها ومعرفة خالقها ، الحياة والله لا الموت ، والناس

نيام فإذا ماتوا انتبهوا ، وما أجمل وأحكم وأصدق قول الرسول الكريم :

« والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن على ما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا ، وبالسوء سوءا وإنها لجنة أبدًا أو لنار أبدًا » .

وبهذا التقرير القاطع يتم الاعتدال في دنيا الناس .

ويرتفع النهم الأبله والجشع المفتون ، وتقوم الضوابط ، ضوابط النفس التي تحجز الشر وترد الفساد وهي تعلم أنها مسوقة لساحة حق وميزان عدل : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ [سورة آل عمران : ٣٠] .

فتقر عين المظلوم الذي فاته الحق في الدنيا ولم ينتصف له ميزان العدل فيها ، ويخيب سعي الظالم وقد وجد الله فوفاه حسابه : ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [سورة طه : ١١١ ، ١١٢] .

والإسلام يقرر بالنسبة للأمر الثاني أن حياة الإنسان وموته لا يملك منهما شيئا ، فلا اختيار له في خلق ولا مشورة له في بقاء ولا علم له برحيل : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [سورة طه : ٥٥] ، ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۝ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ۝ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝ عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الواقعة : ٥٧ - ٦١] .

وإذن فما عمل الإنسان مع هذه القدرة الغالبة والقضاء الملزم ؟

عمله أن يرعى هذا الخلق وأن يتوجه به وجهة الخير ، أن يصون الأمانة الغالية وأن يرعى العهد الوثيق .

حياته سفينته ، عليه أن يعرف قانونها وألا يخرق خرقا يعرضه ومن معه للخطر .

أما الرياح المفاجئة والعواصف المقدرة التي قد تذهب بالسفينة فلا عليه من أمرها ما دام قد أحكم السير وتحرى القصد وأحسن الاتجاه .

الإنسان مؤتمن على هذه السفينة وقانونها ، مؤتمن على رعايتها والحفاظ عليها موفورة بالخير مصونة بالعفة ، مؤتمن على سيرها وسلوكها حتى لا تصطدم بغيرها في محيط الحياة .

وهدى الله هو قانون الحكمة والعدل والاستقامة في ذلك كله ، وهو الأمانة الغالية التي حملها أنبياءه ورسله : ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [سورة طه : ١٢٤] .

وهذه الأمانة عليها وبها يتوقف وصول السفينة راشدة إلى بر السلام .

ولست بحاجة أن أؤكد أن دقات القلب إذا توقفت عجزت قوى البشر أن تمنح النفس مزيدا وقد حم القضاء ، أو امتدادا في العمر وقد جاء الأجل : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

[سورة الواقعة : ٨٣ - ٨٧] .

وهذا التقرير من جانب الإسلام يمنح الحياة رشدها وهي كثيرا ما تغفل عن الأسباب والمسببات : « وكفى بالموت واعظا » ، وكان الرسول ﷺ يقول : « وأكثروا من ذكر هازم اللذات » ولن يكون في الموت وعظ ولن تتأتى هزيمة اللذات إذا أهمل في السعي والتقدير حتمية الموت ووقوعه .

نعم إذا أهمل الناس ذلك وغفلوا عن حساب الآخرة ورب الخلق فلن تكون في الموت هزيمة ولا في ذكره هزيمة للذة ، فكثيرا ما تنفق الدابة ويراها الإنسان فلا يرى إلا حيوانا قد هلك ، أما موت الإنسان فشيء آخر له آثاره في الصحب ، وله تأثيره في الفؤاد ، وله عبرته بين الخلق .

والإسلام حين يقرر هذه الحقيقة ويسوقها كثيرا في آياته ، إنما يجعل من الواقع

المشاهد سبيلا لتهذيب الأثرة وتخفيف الجشع كي يجعل من العبرة البينة آية لحسم الشر والفساد ، ولا أحال هذه الحقيقة ، مع قيامها ومشاهدة الناس لها إلا أبعد الحقائق عن تقدير الناس . والأمر هنا يحتاج إلى نوع من الاعتدال . أعني « في التذكر والخشية » ومن يظن أن ذكر هذه الحقيقة قد يعوق السعي والعمل أو يدعو إلى الخمول والتواكل فقد أخطأ الفهم والتقدير .

طبيعة الأمر أن هذه الحقيقة تحث على إنجاز العمل وإحسانه .

فالعامل الذي يدرك أن جزاءه مترتب على عمله – وهو موقن بأن ساعات العمل محدودة – لا يمكن تدارك ما فات منها أو زيادة ما بقي ، العامل الذي يدرك ذلك لابد أن يشغل كل لحظة من وقته بالعمل الجاد والسعي المثمر .

ويمكنك أن تتأمل الآية وهي تشير إلى هذا المعنى فتجمع بين لقاء الله واستباق الخير : ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة البقرة : ١٤٨] .

قلت : إن هذه الحقيقة ، مع قربها ، يغفل الناس عنها فيسوء سلوكهم ويتحكم جشع الأثرة فيهم ، وأقبح من هذا من يظن أنه ليس بعد الموت شيء ، لابد أن يكاثر وأن يغالب ليحظى من الدنيا بأكبر نصيب بأي سبب ومن أي طريق ولن يحجزه عن الشر والفساد قيام العبرة بين الخلق مع أن هذه الحقيقة وحدها يمكن أن تصحح كثيرًا من المشكلات المصطنعة التي يسوقها الهوى الكذوب ، وتحركها الغفلة الظالمة ، أو تقيمها اللذة الغافلة .

ولقد أعجبتني حكمة أبي الدرداء ، وهو يقول : أضحكني ثلاثة وأبكاني ثلاثة :

أضحكني مؤمل دنيا والموت يطلبه ، وغافل ليس بمغفول عنه ، وضاحك ملء فيه وهو لا يدري أراض ربه عنه أم غضبان عليه .

وأبكاني هول المطلع ، وانقطاع العمل ، وموقف بين يدي الله لا أدري أيذهب بي إلى الجنة أم إلى النار ؟

ويأتي الأمر الرابع إلى أين المصير ؟ والقرآن يقطع بأنه « إلى الله » إلى الآخرة . امتداد لا انقطاع : ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ۝ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ۝ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ۝ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ۝ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾ [سورة القيامة : ٢٦ - ٣٠] .

ويتضح من هذا أن قضية الإنسان أوسع مدى من أن تتصور محدودة في مشكلة الطعام والشراب ، وبعضها يتطلب عملا صالحا وسلوكا طيبا وكل ذلك يتم في مرحلة الاختبار والامتحان ، مرحلة الحياة الدنيا ، يتم بلا فصل بين هذا وذاك ، فلا تفرقة بين العمل للآخرة والسعي في الدنيا ، ولعمري أن تأمين الحياة وسلامتها هنا يتم بشكل طبيعي لا يحتاج إلى قوة خارجة عن النفس وهي تعلم أن حياتها في طهر السلوك وصالح العمل وفي هذا من ألفة الناس وبرهم وتعاونهم وحبهم ما فيه .

ومن ثم فالمستقبل في نظر الإسلام معلوم فنحن نوقن أن بعد الموت حياة ، أما ما يترتب على هذا المعلوم فقد عرفت بعضه فيما مضى ، هذا المعلوم تطيب به دنيا الناس ويستقيم معه سلوك الخلق ويتوافر به السلام والأمن ، وقد عرفت أن الفرد في الإسلام لا يعمل للآخرة بإهمال الدنيا بل يعمل في الدنيا ليظفر بالآخرة والإسلام لا يقول : أن للآخرة عملا غير عمل الدنيا الذي يحقق به الإنسان صيانة جسده وطهارة روحه .

الإسلام لا ينفر من الدنيا – مع كونها مرحلة لما بعدها – بل يقول : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » فمزج بين العمل على أساس البقاء فيها أبدا وبين الإعداد للآخرة كأن الموت غدا ، ولا يمكن أبدا أن يصحح أمر الخلق ويقيم السلام بينهم إلا تقدير الأمر هكذا في سلوك الناس وأعمالهم .

المستقبل معلوم وبه يخف التوتر في دنيا الناس ويتحقق العدل والاعتدال بينهم .

المستقبل معلوم وهو الذي يجعل الإنسان يحاسب نفسه في أخذه وعطائه لأنه مقبل على حساب لا يفلت منه مثقال ذرة : « ولتجزون بالإحسان إحسانًا وبالسوء سوءا إنها لجنة أبدًا أو لنار أبدًا » فحدود المعلوم أنه حياة دائمة لا تنقطع .

ولا أود أن أطيل في تبيين الآثار التي تنعكس على حياتنا الدنيا نتيجة الإيمان باليوم الآخر ، فقد عقدنا لذلك فصلا خاصا ، وإنما أود أن نتأمل نتيجة « المصير المجهول » عند الماديين الذين لا يرون من أمر الكون وحقائقه إلا أن الإنسان يحيا ثم يموت وكفى ، أما ما وراء ذلك الموت فعلى أخف تقدير عندهم أنه مجهول ، وسواء أكان مجهولا ويحتمل كل شيء أم معلوما بأنه ليس بعد الموت شيء . فإن الآثار المترتبة على هذا أو ذاك واحدة ، وهي أن التسابق المسعور لابد أن يقع في دنيا الناس ، نتيجة أنها دنيا فحسب ، ولابد لفضائل النفس هنا أن تطوع للذائذ الحياة ومشتهياتها . بالإضافة إلى أن هذا المجهول أو المعلوم اللاشيء فضلا على كونه يقيم العبث في حكمة الخلق يملأ حياة الناس كذلك بالإبهام المظلم ، والقلق المحير ، فإذا لاحظت أن هذا المجهول أو المعلوم اللاشيء يجحد حقيقة الخالق ويتنكر للأسباب العامة في الإيجاد والتكوين والرعاية والحفظ ألفيت عظم الكارثة التي تحيق بالإنسانية ، وهي تقطع جميع الأسباب لراحتها وسعادتها وبقائها .

وحري بهذا الجحود أن يسوقها إلى أعنف ويلات الظلم ، وأحلك ساعات الظلام ولابد من حدوث نتيجتين : ظهور الفساد في الأرض بما كسبت أيدي الناس ، ووقوع الحساب على ما قدمت أيديهم .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾

[سورة النور : ٣٩ ، ٤٠] .

ولا يغنينا في القضية بشيء معلوم لا نرى أثره في واقع الحياة والسلوك .

والإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل إلا أن قومًا ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا : « نحن نحسن الظن بالله ، وكذبوا . لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل » .

نعم لا يغنينا في القضية بشيء معلوم يجاهر به صاحبه ولا يرى أثره في واقع الحياة والسلوك ، وما يقال بعد هذا : أن الانصراف عن الآخرة يجعلنا نركز الاهتمام بالدنيا ولا نهمل شأنها .. باطل من أساسه ، إذ ما نتيجة الاهتمام بالدنيا المنقطعة الصلة عن الآخرة .

النتيجة على أبسط الصور وأعمقها أن الإنسان مجرد حيوان أعني ذو بطن ومعدة وشهوة ، ومعنى الانصراف عن الآخرة .. التكالب على الدنيا بشكل مسعور يتم معه الاصطدام الذي يودي بحياة الناس وتذهب معه دنياهم « المحروسة الغالية » .

ولهذا فالانصراف عن الآخرة وإغفالها في التقدير والسلوك يضيع الدنيا والآخرة معًا ، أي يودي بمصير الإنسان كله ، ويذهب به في واد مظلم سحيق .

والإسلام كما قلنا لا يفصل مطلقا بين عمل الدنيا والآخرة ، فليس فيه تركيز الاهتمام بأحدهما دون الآخر ، وإذا كانت الآخرة لا تنال إلا بالعمل في الدنيا فقد انحصرت دائرة العمل ووجب أن يتم إحسانه لتطيب ثمرته .

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [سورة فاطر : ١٠] ، ﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ المُحْسِنِينَ ﴾ [سورة الأعراف : ٥٦] . فسبيل الراحة في الآخرة هو إخلاص العمل في الدنيا ، وتجريده من كل غرض يسيء إلى مصالح العباد ، ويعرض لسخط الخالق .

فما يقال : من تركيز الاهتمام بالدنيا لتعمر أمر باطل في الإسلام ، لأنه لم يقل اهملوا الدنيا لتنالوا الآخرة بل قال : اعملوا بجد في دنياكم واغرسوا العمل الصالح فيها لتجدوا الثمر الطيب : ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [سورة الكهف : ٤٩] ، ﴿ ادْخُلُوا الجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة النحل : ٣٢] .

وإذن فقد ذهب من التقدير معنى الانصراف عن الحياة ولذائذها .

والقرآن ينكر على من يظن أن زينة الحياة الدنيا حرام على المؤمنين ، بل هو يجعل زينة الحياة والطيبات من الرزق للمؤمنين عن طريق الأصالة ، ولغيرهم عن طريق التبع ويخصهم بها في الآخرة لا يشاركهم فيها أحد : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي

أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ القِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ٣٢] .

ما المحرم إذن ؟ ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالبَغْيَ بِغَيْرِ الحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ٣٣] .

وبناء على ما تقدم يمكننا أن نقول : أن هناك مشكلات أساسية لابد من حلها حتى تتوافر الطمأنينة والأمن والتآلف والبر والسلام والرحمة .

وهذه المشكلات كما نرى تنعكس الحلول فيها على واقع الحياة وسلوك الناس .

وقد رأيت الأمر بالنسبة للإيمان بالآخرة ، وما يترتب على الإيمان والكفر في واقع المعاملة والسلوك ، فالنظر إلى هذه القضايا يتصل اتصالا وثيقا بمشكلات العيش والزاد والاقتصاد ، وهي المشكلات الضرورية التي يتطلب حلها نوعا من الصفات التي لابد من توافرها ، يتطلب العمل والصبر ، كما ينشد كثيرا من فضائل النفس كالصدق والعدل والإيثار والبر حتى ينعم الجميع بنعمة المودة والتعارف والسلام والرحمة .

وإذن فشئون العيش لا تتوقف على الكم فقط أي كمية الناتج من العمل والثروة الطبيعية بل تتوقف أيضا على الكيف « أي الصفات التي تتحكم في الناتج ، والأخلاق التي تصرف أمره ، إما بالاستغلال والكنز و الإنفاق والبذل » .

والأرض بحمد الله ما ضنت بخيرها ولا ضاقت بأهلها ، والسماء ما أمسكت رزقها ولا منعت فيضها ، ولكن معدة عمرو اتسعت فوسعت كنوز الأرض وهل بطن عمرو غير شبر لمطعم ؟ هذا الشبر أبت مدنية العصر الحديث إلا أن تعلن سعته لابتلاع الأرض وما حوت ، ومن للمدينة الحديثة – وهي تؤمن بالمحسوسات – يعلمها أن معدة عمرو شبر لا غير ويقنعها بذلك ؟ من للمدينة الحديثة يعلمها أن هذا الشبر لا يتسع لأسلاب الضحايا وأنات المظلومين ؟ من ؟ من ؟

ومن عجب أن هذا الشبر يتحكم الآن في مقدرات العالم ، وقد أبت المدنية

الحديثة إلا أن تجعله صاحب مملكة وسلطان ، وأن تعد من أجله أكبر قوة ضاربة ، يمكن أن تبيد العالم في لحظات ، والويل كل الويل لمن أبى الخضوع لقوة صاحب الجلالة (شبر) ولم يدخل تحت منطقة نفوذه ، الويل لمن لم يعلن الولاء والطاعة ولم يستجب لمطامعه ورغباته .

وتمدد صاحب الجلالة وتمطى – ولم يزد عن شبر – وهذه قواته تغزو الفضاء وصواريخه تعبر القارات والدنيا مسخرة بأمره خاضعة لرغبته ، وتتحرك الدنيا في بلادة إلى أسوأ مصير ، ويأكل بعضها بعضا بلا خلق أو ضمير وهي غافلة عن بطن عمرو وأنه (شبر) .

ويقف النبي الأمي من أربعة عشر قرنا ليضع حل المشكلة في كلمات فطرية واقعية صادقة فيقول ولتسمع الدنيا : « من أصبح آمنا في سربه معافى في بدنه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » .

آمنا في سربه ، معافى في بدنه ، عنده قوت يومه . ماذا بقي ؟ بعد الطعام والكساء والصحة والأمن ؟ أليست تلك ضرورات المعيشة في الحياة ، بل أقصى ما يمكن أن تتضافر جهود الأحياء على تحقيقه ؟

ولكن ماذا يعني هذا الكلام الفطري في بساطته ؟ يعني تحديد الضرورة وأنها لا تخرج عن طعام وكساء وصحة وأمن لتقوم القناعة سدًّا أمام كذب الهوى وانحراف التطلع ، وهنا تنحل أكبر مشكلة واجهت الإنسانية وتواجهها ، وهي مشكلة التكاثر الذي ألهى الناس عن مقدار الضرورة كما شغلهم عن اليوم الآخر .

والذي نزلت من أجله سورة كاملة سميت باسمه في القرآن ليأخذ الناس حذرهم ويدركوا حقيقة أمرهم .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾

[سورة التكاثر : ١ – ٨] .

وتأبى فطرة النبوة الهادية إلا أن تحسم الأمر في تساؤل يثير الدهشة : أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله ؟ طبيعي أن يكون الجواب : ما منا أحد إلا وماله أحب إليه ، فتقرر النبوة الصادقة والفطرة الهادية هذا القرار الذي يحل مشكلة العالم لو أخذ به : « فإن ماله ما قدم ، ومال وارثه ما أخر » .

أروني تقريرا للواقع أصدق وأبر وأكرم من هذا ؟ الذي تؤخره مال وارثك ، الذي تجمعه وتكنزه مال وارثك ، ومن وارثك لا ندري ؟ فلربما حملت أنت وابنك ومن تحب في نعش واحد .

هذا التقرير جاد وصادق وليس مجرد وعظ يقال للناس ، ومشكلة العالم تتوقف على فهم هذه البسائط وتقديرها في مجال السلوك ، علام التكاثر ؟ علام البغي والتسلط ؟ من أجل شبر ، تشبعه لقمة ، وإن بولغ فيها اشتكى التخمة وقد يأتي المرض نتيجة امتلاء ، وكثيرا ما يأتي بسببه كما قيل : « المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء » .

علام التكاثر ، والحدود معلومة والضرورات مقدرة ؟ أمن حرص على الحياة ؟ إن الحرص عليها أودى بها ؟ أمن قلة زاد ونفاد عيش ؟ والله ما ضاقت الأرض بأهلها ولن تضيق ، ولكن أخلاق الرجال ، واتباع الهوى ، وأثرة الجشع ، هي التي اغتصبت طعام الملايين ، وملأت أجواف الأرض بأسباب الدمار والخراب ، وعاشت الإنسانية كلها ظالمها ومظلومها في فزع ، وخوف وقلق ، وهي تتطلع إلى الأمن ، وتنشد السلام وتنادي به في صرع ، كما ينادي الغريق وسط طوفان الموج الغامر وظلماته .

ومن عجب أن تكون الاستجابة لنداء السلام مزيدا من الاستعداد للحرب ومن ثم تكون مزيدا من وقوع الخوف والاضطراب بين الشعوب ، وشرود الذهن وراء اللقمة ، الشاردة ، والعيش المفقود .

ولنا أن نتساءل ما الأمن الحقيقي والسلام الصادق الذي تتطلع إليه الإنسانية ؟

قد يقال : أن السلام معناه عدم الحرب ، والحق أن هذا المعنى يعني بالشكل

أكثر من الموضوع ، ويأخذ الظاهر ولا يتأمل الحقيقة ، إذ ليس معنى عدم الحرب قيام السلام ، وليس معنى قيامها ضياع السلام ، فقد يتحقق السلام والحرب قائمة وقد يضيع السلام والحرب نائمة .

إن السلام ليس مشكلة حرب أو لا حرب ، إنما مشكلة السلام هي مشكلة الإنسان نفسه ، الإنسان وحقه في الحياة ، وفي الحرية ، وفي العقيدة ، وفي العمل . الإنسان في صفاته وأخلاقه ، في المفاهيم التي يجب أن تقوم بين الناس ، في الغاية من الحياة والمقصود منها ، مشكلة السلام بدأت أساسا من النفس فلا يصح أن تحل بعيدا عنها وأي نظر إليها خارج حدود النفس إنما هو صرف للأنظار عن الحقيقة وموطنها فلنوفر الأمن والسلام في داخل النفس ثم نطلب تحقيقها في الخارج ؟

فما غاية أمن النفس وحقيقة سلامها ؟ هل غاية أمنها أن يتوافر طعامها وشرابها ؟ نحن نرى أن الطعام موفور وأن نعم الله غامرة ورحمته سابغة ، ومع وفرة المال وكثرة النعم لم تحل دون اضطراب النفس وخوفها وقلقها بل وطمعها وجشعها مما ترتب عليه قيام الخوف والقلق ، والطمع والجشع في واقع حياة الناس ، بل ربما كانت وفرة المال عند البعض هي التي دعت إلى طلب المزيد .

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع

ما غاية أمن النفس وما حقيقة سلامها ؟ قد يقال : إن الناس تختلف غاياتهم ، فمنهم من يطلب المال ، ومنهم من يرغب الجاه ، ومنهم من يخطب الحسناء ، ومنهم ومنهم ، وقد يقع التنافس على المطلوب بل قد يقع التقاتل على المرغوب ، نعم . ولكننا نسأل عن الأمن الصادق والسلام الحقيقي ، وربما لا يتعارض هذا السلام وذلك الأمن مع طلب المال أو الجاه أو الحسناء حين تطلب صيانة للنفس بطريق الحلال ، بل قد يتوافر ذلك كله بلا تشاحن أو بغضاء : وبيان ذلك أن المال أو الجاه أو الحسناء أمور قائمة مع الناس تكون حيث يكون الناس وتعدم حين يعدم وجود الإنسان ، فالإنسان هو الأصل وهذه وأضرابها تابعة لوجوده فكيف تكون غاية له ؟

الحق أن الانحراف بدأ من هنا : المال ليس غاية ولا يصلح أن يكون غاية لأنه

أعمى أصم أبكم مسخر لراحة الإنسان ، يتحكم الإنسان فيه بمواهبه وأخلاقه ومطالبه ولا يتحكم هو في الإنسان اللهم إلا حينما يغفل الإنسان عن قيمة نفسه وحقيقة وجوده ، وهذا ما حدث في المدنية الحديثة ، فأنت لا تسمع إلا المال ، الاقتصاد ، مستوى المعيشة ، الدخل .. إلخ . كلمات تتردد ولا تعني إلا شيئا واحدًا فقط (المكاثرة – وجمع المال) والإنسان يجري كالمسعور وراء هذا . يجري كالمسعور وراء هذا الصراخ من كل جانب : المال ، المال ، المال ! ولا ينقطع الجري والصراخ أبدا طالما أن هناك تكالبا وتكاثرا ومغالبة ، وطالما كان المستقر في النفس المال ، لا مصرفه أو موجده ، وكم رأينا أمما تستعبد لتأخذ خيراتها ، ودولا تغتصب من أجل مواردها ، وضحايا تذهب لتسلم الدنيا ، وحربا توقد من أجل المال . وكم وكم ؟

هذه غاية مفرقة لا محالة ولا يتوافر معها أمن الناس ولا يستقيم بها سلامهم ووالله لو كان دخل الفرد في الكرة الأرضية مليونا في اليوم ، ولم تكن من وراء هذا المليون نفس قانعة وضمير يقظ لأحرز الفرد بالزائد من بطنه « الشبر » أي أحرز بالمليون كله مليونا من قنابل الفتك والدمار يحطم به غيره ليحرز ما لديه من درهم أو دينار !

ليست العبرة في الحقيقة بالمال وحده فكم من أمم اغتنت فطغت ، وامتلأت فاغتصبت . وهكذا الإنسان إذا لم تحكمه قوة الإيمان ويصرفه رشد اليقين وصدق الله العظيم : ﴿ كَلَّا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى ، أَن رَّآهُ ٱسْتَغْنَى ﴾ [سورة العلق : ٦ ، ٧] .

وإذن فالمال وحده لا يمكن أن يوفر أمن النفس وسلامها ، ولو توافر لكل فرد في الدنيا .

والمشكلة الاقتصادية ليست وحدها التي تؤمن حياة الناس وتسوق السلام لهم ، ولذلك فإن اتجاه الهمم إليها دون سواها صرف للجهود الإنسانية عن موطن الداء وحقيقة المشكلة . وقديما قال الحكماء : « اعرف نفسك » وقال القرآن الكريم : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [سورة الشمس : ٩ ، ١٠] .

نحن لا نقلل من أهمية المال فيما نحن بصدده من توفير الأمن والسلام ، ولكن

السلام معنى تحققه النفس بآدابها ، وسلوك يحققه القلب بسلطانه .

السلام لا يقوم إلا بأسبابه ، وأسبابه في النفس قناعة ومناعة ، ومرجع كليهما « معرفة ، وإيمان » معرفة لحدود النفس وضروراتها ، وإيمان يحول بينها وبين البغي والتسلط . إيمان بخالق الكون ومصرف الوجود تتوافر معه أسباب الرحمة والتكافل والقناعة والرضا « آمنا في سربه ، معافى في بدنه ، عنده قوت يومه » ولا خوف من الغد ، لأنه لا خوف من العبد ولا كفران بالرب ، بل أمن وإيمان . أمن من أن أحدا لا يطغي على حقه في السعي أو يغتصب نتيجة الكسب ، وإيمان بالرزاق الذي لن يقبض النفس ولها بقية من رزق « ولن تموت نفس حتى تستوفي رزقها » فما دامت باقية في الأرض فلها بقية من رزق ، وليس هذا الاعتقاد منفرا من الحياة أو ضائقًا بها بل هو مقدر لشئونها عامل لراحتها مؤنس لوحشتها داع لأمن الناس وسلامهم .

ومن العبث أن نعد هذا نوعا من الوعظ نخفف به غلواء الناس فحسب ، بل هو أصدق تقرير تقوم عليه دعائم السلم في الأرض وأبر نداء يتحقق به السلام في العالمين .

المشكلة : مشكلة أخلاق ، والسلام سلام النفوس ، والأمن إيمان القلوب ، وليس الأمر نقصان مال أو نفاد زاد .

والسلام الحقيقي الذي تنشده الإنسانية هو سلام العدل والإخاء والبر والرحمة سلام الصدق والأمانة والوفاء . سلام التعارف والتعاون .

وهذه الصفات وحدها هي دعائم السلم في الأرض فإذا اضطرب الحق وأبت الأمم إلا السلب والنهب والاغتصاب وجبت الحرب وكان قيامها عملا من أعمال السلم وضرورة من ضرورات الأمن .

فليس السلم معناه عدم الحرب بل معناه قيام الحق والعدل ، وليس من العدل في شيء أن تغتصب أمم أو تذل شعوب ، وليس من العدل التفرقة بين جنس وجنس أو لون ولون . ليس من العدل أن تسرق الجهود ، وأن تصادر الحريات ، وأن يبتلع القوي الضعيف .

وإذن فقد تكون الحروب ضرورة لابد منها ودفعا لابد من وقوعه ، وإلا فسدت

الأرض وهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد أي بطل الأمن وذهبت مقدسات الإيمان وصدق الله العظيم : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [سورة الحج : ٤٠] ، ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى العَالَمِينَ ﴾ [سورة البقرة : ٢٥١] .

نعود فنقول وكيف يتوافر السلم الحقيقي والأمن الصادق ؟ نجيب بلا تحفظ بدعوة الإسلام ، فحقيقة السلم في الإسلام ، وصادق الأمن في الإيمان ، وليس هذا منا تعصبا أو وعظا للإنسانية المكلومة الحيرى ، بل هو في الحقيقة حرص على مقدراتها وإنقاذها من الطوفان الغامر والظلام المسيطر . ولن تجد الإنسانية غير الإسلام منقذا لها ، ولا غير سفينته عاصما من أمر الله ، أما بيان ذلك في إيجاز فإننا نقول : السلام ينبع من ضمير الفرد : أي من تقديره للحق والعدل وإيمانه بخالق الكون . إيمانا لا يشوبه شرك ، وعقيدة الإسلام تفي بكل ذلك في بساطة وفطرة وإقناع .

السلام ينبع من ضمير الفرد : أي من معرفته لنفسه وطهره في سلوكه ، وتعففه عما في يد الناس ، والإسلام بعقيدته وشريعته يحقق الفرد المثالي في كل ذلك ، ويقيم في النفس رقابة صادقة من وحي الإيمان ويقظة الضمير ، السلام ينبع من ضمير الفرد ، أي من قناعته ، وصدقه ، واعتداله ، الإسلام بعقيدته وشريعته يحقق كل ذلك في إيثار ورحمة وبر ، وأخوة ومساواة .

وما دامت المشكلة في أساسها تعود إلى الإنسان في صفاته وأخلاقه ، فلسنا نغلو إذا قلنا : إن تربية الإنسان هي سبيل الأمن والسلام ، والمناهج البشرية كلها عاجزة عن تحقيق إنسانية الإنسان ، أي انتصار فضائله وأخلاقه على نزواته وشهواته . صحيح أن المدنية الحديثة قد حققت الكثير من المتع وأسباب الرفاهية للإنسان ، ولكن ذهبت بالإنسان نفسه أي سلبت أمنه وراحته ، وبطشت بصفاته

وأخلاقه [١] يقول الأستاذ جود الإنكليزي : « إن هذا التفاوت بين فتوحنا العلمية المدهشة وطفولتنا الاجتماعية المخجلة نواجهه على كل منعطف ومنعرج ، نستطيع أن نتحدث من وراء القارات والبحار ، ونرسل الصور بالبرق وننصب اللاسلكية في منازلنا ، ونستمع في سيلان إلى دقات الساعة العظمى تضرب في لندن ، ونركب فوق الأرض والبحر وتحتهما ، والأطفال يتحدثون عن الأسلاك البرقية ، وآلات الكتابة صامتة ، وتملأ الأسنان من غير إيجاع ، والزروع تنمى بالكهرباء ، والشوارع تفرش بالمطاط ، وأشعة روتنجن نوافذ نطل منها على داخل أبداننا ، والصور المتحركة تتكلم وتغني ، وتكشف عن المجرمين والمغتالين باللاسلكية ، والغواصات تذهب إلى القطب الشمالي ، والطيارات تطير إلى القطب الجنوبي ، ومع كله لا نقدر في وسط مدننا الكبرى أن نخصص رحبة يلعب فيها أطفال الفقراء في راحة وسلام ، ونتيجة ذلك أننا نقتل منهم ألفين (٢٠٠٠) ويجرح منهم تسعين ألفا (٩٠٠٠٠) سنويا ، قال لي فيلسوف هندي في انتقاده اللاذع لاطرائي لعجائب حضارتنا وكان بعض سواقي السيارات قد نجح في قطع ثلثمائة أو أربعمائة ميل في ساعة على رمال .. وطارت طائرة من موسكو إلى نيويورك في عشرين أو خمس « لا أذكر » ساعة . قال الفيلسوف نعم إنكم تقدرون أن تطيروا في الهواء كالطيور وتسبحوا في الماء كالسمك ، ولكنكم إلى الآن لا تعرفون كيف تمشون على الأرض . ويقول : « إن العلوم الطبيعية قد منحتنا القوة الجديرة بالآلهة . ولكنا نستعملها بعقل الأطفال والوحوش » .

وإذا نحن تساءلنا بعد ذلك :

٢ – وهل أوفت النظم القائمة بحاجة الإنسانية ؟

أمكننا أن نجد الجواب في الواقع المر الذي نحياه وفي طبيعة المذاهب التي تحكم كبرى دول العالم اليوم ، وهذه المذاهب جميعها مع تنافرها واختلافها تلتقي عند النظر إلى الجانب المادي فحسب : أعني إلى حيوانية الإنسان لا غير ، ومعناه تسليح الإنسان دائما بأسلحة الغابة التي لا تعرف إلا الفتك والغدر والتربص

---

(١) « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » للسيد أبي الحسن الندوي .

والانقضاض [1] يقول الأستاذ جود : « قد استطعنا أن نسافر بسرعة زائدة من مكان إلى مكان ولكن الأمكنة التي نسافر إليها قلما تصلح ، قد زويت الأرض للرحالين وتدانت الأمم ووطيء بعضها عبة بعض ، ولكن كانت نتيجة ذلك أن توترت العلاقات بينها وأصبحت أسوأ مما كانت ، أما المرافق التي استطعنا بها أن نتعارف بجيراننا فقد عادت فحشرت العالم في الحرب . اخترعنا آلة الإذاعة وتحدثنا بها إلى الشعوب المجاورة والأمم الشقيقة ، ولكن كانت عاقبتها أن كل شعب يستنفد موارد الهواء لإيذاء الشعب المجاور ومعاكسته ، إذ يجتهد أن يقنعه بفضل نظامه السياسي على نظامه. « انظر إلى الطيارة التي تحلق في السماء يخيل إليك أن صانعيها كانوا في علمهم ولباقتهم وصناعتهم فوق البشر ، والذين طاروا عليها أولا لاشك كانوا في علو همتهم وجرأتهم أبطالا مغاوير ، ولكن انظر الآن إلى المقاصد التي استعملت لها الطيارة وتستعمل لها في المستقبل إنما هي قذف القنابل وتمزيق جثث الإنسان ، وخنق الأحياء وإحراق الأجساد ، وإلقاء الغازات السامة ، وتقطيع المستضعفين الذين لا عاصم لهم من هذا الشر إربا إربا ، وهذه مقاصد الحمقى أو الشياطين وما عسى أن يقول المؤرخ غدا كيف كنا نستعمل معدن الذهب ، سيذكر أنا توصلنا إلى أن نخبر عن الذهب باللاسلكي ، وسيستعرض الصور التي تمثل اللباقة والمهارة التي كان أصحاب المصارف يزنون بها الذهب ويعدونه ، وكيف تحدينا قانون الجاذبية في نقله من عاصمة إلى عاصمة ، وسيسجل أن أشباه الوحوش الذين كانوا ماهرين وجريئين في فتوحهم الصناعية كانوا عاجزين عن التعاون الدولي الذي كان يقتضيه ضبط الذهب والتقسيم الصحيح ، وكانوا لا يعنون إلا بأن يدفنوا المعادن بالسرعة الممكنة ، وكانوا يستخرجون الذهب والمعادن من بطون الأرض في جنوبي إفريقية ويدفنونها في مصارف لندن ونيويورك وباريس » .

إن المشكلة الحقيقية للعالم اليوم هي فقدان الإنسان . الإنسان الذي يحيا بمعاني إنسانيته ويتفاعل مع الكون بفطرته . الإنسان الذي يرى قيمته فيما يقدمه من

---

(١) « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » للسيد أبي الحسن الندوي .

عمل الخير وما يقدمه للإنسانية من بر . الإنسان الذي يدرك صلته بالكون ولا يجحد خالقه ويدرك حقيقة نفسه ويعرف غايتها بمعانيه الإنسانية البارة الرحيمة وأخلاقه التي تدعو إلى حسن التعارف والمودة .

والحق أن المدنية الحديثة لا تعنى بالقيم ولا تقيم وزنا للأخلاق ، وهي بهذا تستخف بالإنسان وحقيقة الإنسان كما تستخف بحياته ووجوده .

قد يقال : أليست الحضارة الحديثة من أجل الإنسان وراحته في الحياة ؟

نقول : يمكن أن تكون كذلك لو أنها سخرت له ولم يسخر لها . يمكن أن تكون كذلك لو حكمتها القيم وصانتها الأخلاق ، ولا لوم على الحضارة في ذاتها ولا من حيث هي وإنما اللوم على الإنسان ، الإنسان الذي حول نعم الله إلى نقم ، وانقلب في محراب الكون ، الذي يوحي بالاستقامة والطهر إلى شيطان مارد يتلهى بالفساد والإثم ، وما أجلها حضارة تلك التي تتعرف إلى أسرار الكون وتدرك حرمة الإنسان . ما أجلها حضارة تلك التي تأخذ بيد الإنسان إلى سعة الكون ولا تدعه في ظلمة الإنسانية وظلام الفجور .

نحن نرحب بالحضارة المادية القائمة بشرط أن نرى مع قيامها وجود الإنسان .

نرحب بها وندعو لها ونكرم رجالاتها ونقدر جهدهم ونود لها مزيدا من التوفيق وامتدادا في باب الكشف والمعرفة ، والشوط أمامها بعيد وكلما كشفت عن شيء استبان لها أنها دائما في بداية الشوط : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [سورة الإسراء : ٨٥] .

نعم : نكرم الحضارة المادية ونطلب صيانتها وامتدادها في صحبة الكون وخدمة الإنسان ، ونغار عليها أكثر مما يغار المفتونون بها والمنحرفون بنتائجها ، نغار عليها لأننا نراها تراثا للإنسانية في غابر الأجيال ، ونراها وليدة مواريث عملت في مجال الفكر والسلوك ، ولا نود أن تتعرض أبدا لعبث الأطفال الذين يستخفون بالجوهر الغالي والكنز الثمين ، وهي حينما تفارق القيم أو تتنكر لها إنما تنتكس على نفسها وهي تجهل أسباب قيامها وسر بقائها ، وليس للمدنية من عاصم ما يعصمها من الطوفان الغامر إلا سفينة الخير والرشد ، سفينة الإيمان بالله والاعتراف بفضله ليس لها

من عاصم إلا أن تؤمن عمل المادة بأدب الروح ، وأن تهذب السعي بطهر الأخلاق ، وأن تبصر الخالق وهي تعامل المخلوق ، والعلم وحده لا يمكن أن يغني في القضية بشيء ما لم ينتصر معه حقيقة الإنسان وحقائق الوجود ، وإذا انفرد وحده فإننا معه وبه نمضي إلى الهاوية ، ونتردى في أسوأ مصير .

يقول : « فون باين » [1] مستشار الرايخ الألماني قبل هتلر : « إننا نقف على حافة الهاوية ، ذلك لأننا تعلقنا بأهداب العلم ، وظنناه كل شيء ، حتى استعبدنا العلم ، وبالغنا في الآلة والاختراع حتى صرنا عبيد الآلة والاختراع ، ولم تبق إلا بارقة أمل وحيدة في النجاة ، وهو أن نؤمن أن هذا الكون له خالق ، وأن الخالق قد وضع له سننا وقوانين ، فإن سرنا على هدى من هذه السنن والقوانين سخر لنا العلم ، وسخر لنا الاختراع ، ونجونا ولم نسقط في الهاوية » .

وإذا نحن تأملنا المذاهب التي تسيطر على حضارة المادة سواء منها الشيوعية أو الرأسمالية ألفيناها عاجزة عن إمداد الإنسانية بهذه المعرفة وأسبابها . معرفة الله وخشيته وهي تنكر وجود الخالق وتحارب أسباب اليقين في الأرض وتتسلط على المعتقدين بوجود الله والمدركين لفضله ونعمه . أو تعرفه معرفة جاهلة لا تحقق خشية القلب ولا عصمة الفكر ولا طهر السلوك ، وتبقى قضية الإنسان مبهمة ومعقدة في ظل هذه المذاهب بل تعظم مشكلاته في ظل مذاهب تحصر غايته في متعة الحياة ولذة الشهوة ، وما دامت تلك هي الغاية فقد انحصر الإنسان وأظلم الإنسان واستعبد واستذل . أي عاش حيوانا لا يرى من الكون إلا صورته المادية الظاهرة .

ولقد سقت في أول الباب أمورًا تتعلق بمصير الإنسان وتتصل بحقيقة وجوده . من مبدئه وغايته والعوامل التي تؤثر في حياته وموته ومصيره بعد الموت ، وأثر ذلك على الحياة الدنيا ، وأردت بذلك أن أرفع عن القضية « قضية الإنسان » هذا الأسر الذي قيدت به وهذا الظلام الذي سيقت إليه ، فقضية الإنسان أوسع مدى وأبعد غاية من أن تتصور في ضرورة المعدة وقضاء الشهوة فذلك هو الجانب المظلم فيها

---

(١) من محاضرة للدكتور مصطفى الخفناوي موضوع (فكرة الدولة في الإسلام) .

ولكن للإنسان مع ليله نهار ومع ظلامه نور .

فلماذا نقف عند ليل الإنسان ولا ننظر فجره ، ونقبره في الظلام فلا يرى شمسه ولا قمره ، ونقيده بأغلال الإفك والضلال ، ونذهب به في واد هو فيه ومعه أحط قدرًا من الأنعام أذاك هو الإنسان خليفة الله في الأرض ؟ لا . هذا تبديل لخلق الله . هذا مسخ لحقيقة الإنسان . إن مع الجسد روحًا ، ومع الليل نهارًا ، ومع الظلام نورًا ، فلماذا نهمل الروح في الإنسان ونحجب نهاره ونطفيء مشكاة نوره ، مع أن طبيعة الأشياء لا ترى في الظلام ، وحركة الأجساد تتوقف على الروح ، ومطلب الإنسانية الأسمى (السلام) لا يمكن أن يتحقق إلا بوحي الروح وهداية النور ، ولقد ربط الله بين السلام وبين النور في آية واحدة ليدل على أسبابه وسببه ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [سورة المائدة : ١٥ ، ١٦] .

لهذا إننا نقطع موقنين أن سلام الإنسانية في إسلامها ، ولسنا بهذا نؤثر فئة على فئة أو نطلب المسلمين سادة على الخلق بغير الحق ، وإنما نكرم الإنسانية جميعًا بالحق الذي ارتضاه الله للعالمين ، نكرمها .. فنطلبها متآخية على العدل ، متعاونة على البر متعارفة على التقوى ، نكرمها .. إذ نناديها بنداء الله رب العالمين : ﴿ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [سورة آل عمران : ٦٤] ونرفع مع هذا النداء غشاء التعصب الأعمى الذي يفرق الجمع ويحول دون المعرفة الواعية والسلوك الراشد ونتقبل معها الحقائق على هدى الفطرة وبصيرة الفكر وتقدير الإنسان .

أما أن تسخر الإنسانية كلها لمنطق المادة البليد وهي تبصر تعس المصير وترى هول الكارثة ، فذاك حكمها على نفسها بالفناء : ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [سورة آل عمران : ١١٧] .

وإذن فالمشكلة في حقيقتها تعود إلى صفات الإنسان نفسه الذي يحول ما به النفع إلى الضرر ويسخر ما به الراحة إلى الشقاء .

إن النار خلقت لمنفعة الإنسان ، والإنسان بفكره وخلقه هو الذي يسخرها لما خلقت له ، فإذا انحرفت الأخلاق ، أمكن أن تسخر النار للضرر والفساد ، وإذن فالأشياء المادية في يد الإنسان صالحة للأمرين معًا ، لنفع الإنسان وضرره ، وهي مادة اختبار للإنسان مع ما فيها من النفع ، وكذلك أجهزة الإنسان نفسه من يده وسمعه وبصره وقدمه يمكن أن تسخر لمنفعة الإنسان ويمكن أن تسخر لضرره ، وشتان ما بين ساع إلى الخير ومتجه بإرادته إلى الشر . شتان بين يد تكفكف دمع الباكين وتضمد جراح المكلومين وبين يد تبطش بالآمنين وتمتد بالأذى على المسالمين الوادعين .

الإنسان سيد هذا الكون وخليفة الله في الأرض ، والأشياء المادية كلها صالحة لأن تقدم النفع ، وصالحة أيضًا لأن تسخر في الضرر ، وميزان ذلك خلق الإنسان وسلوكه وذاك موطن اختباره وامتحانه . ولذا كانت مهمة الرسل في صميمها تصحيح الجانب الخلقي في الإنسان ليسلم ميزان التقدير ويتحقق جانب الخير : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

وواقع الحال يفيد أن معظم أقوات العالم مسخرة للإبادة والحرب .

والإنسانية في أقل من نصف قرن قد اصطلت نيران حربين عالميتين . خرجت منهما لا إلى سلم أو أمن بل إلى حرب من نوع آخر . إلى حرب الجوع والخوف والفزع والترقب لأهوال الحرب الإبادة التي توشك أن تعم العالم بجحيم مستعر وهذا الواقع المرير يجعلنا نقطع بإفلاس المذاهب القائمة وعدم مقدرتها على صوغ الراشد ذي القلب الطهور .

هذه المذاهب عاجزة تمامًا عن تحقيق السلم في مجال العالم أو محيط الأفراد ، أو بين الفرد وبين نفسه ، وهي تقيم انفصالا في حقيقة الإنسان بين مطالب جسده وفضائل روحه ، تقيم انفصالا بين دنياه وآخرته .

ففي مجال الفرد لا تسل عن الخوف والقلق والاضطراب والحيرة ، لا تسل عن

الفزع الدائم والتكالب المسعور على مطالب العيش بل لا تسل عن الانحراف الخلقي المشين ، الذي يتمتع به الفرد في دنيا المادية المظلمة الظالمة .

وفي مجال الأسرة لا تسل عن التفكك والضياع ، لا تسل عن الانحراف الذي نال العفة ، وبدد مقومات الشرف والفضيلة ، وقضى على التكافل والشعور بالمسئولية .

وفي مجال العلاقة بين الأفراد أو الجماعات أو الأمم عدمت الثقة وقام الخداع والغدر مقام الأمانة والصدق ، وأصبحت المنفعة بمعناها المادي هي التي تتحكم في علاقة الناس وصداقتهم ، فلا وفاء ولا عهد إلا للمنفعة في ذاتها ، فإن تعارضت مع الصدق فلا صدق ، وإن تطلبت الغدر ونقض العهد فمرحبا بهما ، وهما في عرف العصر كياسة وسياسة ، والأفراد كالدول والدول كالأفراد لا احترام لعهد ولا تقدير لميثاق . ما ذلك إلا لأن فلسفة المادة طغت وعدوى المدنية سرت ، وبدا البون شاسعًا بين حضارة المادة وقيم الأخلاق ، واقتربت الإنسانية في مجال التخاطب والانتقال حتى غدت كأنها في بيت واحد ، وابتعدت في مجال الأخوة حتى غدت كأنها وحوش غاب تحيا معتدة بالظفر والناب . ولا تلازم بين العلم ومكارم الأخلاق [1] قد يرتفع المجتمع الإنساني في الحضارة المادية ومع ذلك ينخفض في المستوى الإنساني ، وقد يتقدم العلم في مجال الطبيعة والرياضة ومع ذلك يتأخر وضع العلماء ووضع مجتمعهم في القيم الإنسانية ، فإذا طغت الأثرة والفردية ووهنت روابط المجتمع وضعف الإيمان بالله أو عدم فلا توجد خصائص المستوى الإنساني الرفيع ، وإذا دفعت الحضارة المادية الصناعية إلى الاحتكاك والاصطدام أي إذا دفعت إلى الاعتداء على البشرية عدم المستوى الفاضل للإنسانية بين أصحاب هذه الحضارة ، وإذا استخدم الإنسان العلم الطبيعي والرياضي للقلق والاضطراب والإبادة أو التشريد ، فأصحابه ليسوا إذن مع مستوى فاضل في الإنسانية . إن الإنسانية غير الآلة . الإنسانية لها مشيئة ، والآلة عديمة المشيئة والاختيار ، فلا يكفي أن تدار الآلة بل لابد

---

(١) محاضرة للدكتور محمد البهي عنوانها : « الإسلام دين المستوى الفاضل في الإنسانية » .

من قيادة ، وقيادتها في الإنسان ، وقيادة الإنسان لنفسه وللآلة معا قيادة صالحة يوم يدرك القيم . يوم يدرك الخير والشر ، ويوم يدرك الأخوة والتعاون ، ويوم يدرك الله .

إن التقوى ، وهي تقوى الله ، وهي البر ، والتعاطف ، والصبر ، والمثابرة غير العلم الطبيعي والرياضي ، والعلم الطبيعي والرياضي لا ينفع إلا إذا صحبته تلك القيم . الإسلام توجيه نحو المستوى الفاضل للإنسانية . هو توجيه نحو المستوى أينما وجد الإنسان في بادية أو في مدينة ، في مجتمع عديم الحضارة المادية ، أو في آخر به حضارة صناعية .

الإسلام كما وصفه الله تعالى في الآية . رسالة التزكية والطهر من طغيان الحيوانية ، ورسالة الحكمة الممثلة في إدراك القيم والمثل ، ورسالة الانتقال من الانحراف إلى الاستقامة في السلوك الإنساني ، سواء لمن جاء في القرآن بلغتهم وقت مجيئه أو لمن كان معهم بغير لغة العرب ، أو لمن يجيئون بعدهم من جميع الأجناس القادمة ، في أي مكان ، وأي زمان ﴿ هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ [سورة الجمعة : ٢ ، ٣] .

وإذن فمشكلة العالم اليوم تنحصر في التنكر للقيم وموازين الأخلاق ولا يمكن أي مذهب أو دين أن يصوغ هذه القيم ، فيجعلها في طبيعة السلوك ، وأن يغرس معنى الخلق في طبيعة الخلق وواقع السعي غير الإسلام .

والإنسانية – إن هي أرادت لنفسها نجاة – عليها أن تعرض نفسها ومشكلاتها على دين ربها ، ولن تجد إلا الإسلام ، والإسلام فحسب ، يجمعها في صعيد واحد على رحابة الود وطهارة العهد وصدق الأمانة وكريم الوفاء .

لن تجد غير الإسلام يعصمها من فرقة الجنس ، وسفاهة التناكر ، وتنابز البغضاء .

لن تجد غير الإسلام ينظم علاقتها مع اختلاف أجناسها وعقائدها ، فيجعل العدل أساس التعامل في الحب أو البغض ، ويجعل الوفاء بالعهد أساس الصلات بين

الأمم والأفراد ، كما يجعل المودة والرحمة أساس العلاقة بين الإنسان والإنسان : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [سورة الحجرات : ١٣] .

ولاشك أن المذاهب القائمة – كما قلنا – عاجزة عن أن تحقق الاستقرار في نفس الفرد فكيف بها تطلب لتحقيق الاستقرار أو السلام في العالمين ! إنها محدودة بحدود أصحابها ونزعة صانعيها ، إنها شرائع بشر لا تخلو من الهوى ولا تتجرد للصالح العام .

٣ – والتجربة القائمة أقوم دليل ، وهي تنبيء عن عجزها بل وإساءتها إلى القيم والأخلاق ، ولن تحقق أبدًا للعالم ما يرجوه من أمن وسلام .

يقول مستر جب [١] : « ولكن الإسلام ما زال في قدرته أن يقدم للإنسان خدمة سامية جليلة ، فليس هناك أية هيئة سواه أن تنجح نجاحًا باهرًا في تأليف الأجناس البشرية المتنافرة في جبهة واحدة أساسها المساواة ، فالجامعة الإسلامية العظمى في إفريقية والهند وأندونيسيا ، بل تلك الجامعة الصغيرة في الصين وتلك الجامعة الضئيلة في اليابان ، تبين كلها أن الإسلام ما زالت له القدرة التي تسيطر كلية على أمثال هذه العناصر المختلفة الأجناس والطبقات ، فإذا وضعت منازعات دول الشرق والغرب العظمى موضع الدرس فلابد من الالتجاء إلى الإسلام لحسم النزاع » .

ومن [٢] مميزات الإسلام الأصيلة ملاءمته لجميع الأجناس البشرية ، فلم يكن العرب وحدهم هم الذين اتبعوا الإسلام ، بل كان ممن ضمهم من هو فارسي كسلمان الفارسي ، وبعضهم من النصارى كورقة [٣] ، وبعضهم من اليهود كمخيريق وعبد الله بن سلام ، وبعضهم من الأحباش كبلال وغيرهم وجاء القرآن الكريم :

---

(١) العدالة الاجتماعية .. لسيد قطب .

(٢) الفونس إيتين دينيه . محمد رسول الله .. ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود .

(٣) ورقة بن نوفل كان على استعداد وترقب لدعوة محمد .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سورة سبأ : ٢٨] ، فدين الرسول محمد ﷺ قد أكد من الساعة الأولى لظهوره ، وفي حياة النبي عليه السلام ، أنه دين عام صالح لكل زمان ومكان ، وإذا كان صالحًا بالضرورة لكل جنس كان صالحًا بالضرورة لكل عقل إذ هو دين الفطرة والفطرة لا تختلف في إنسان عن آخر ، وهو لكل هذا صالح لكل درجة من درجات الحضارة وهو على ما فيه من تسامح وبساطة سواء لمذهب المعتزلة ، أو تشدد بالنظر لمذهب الصوفية ، يؤدي للعالم هداية وتوفيقًا سواء في ذلك الأوربي المتحضر والزنجي الأسود من غير أن يعوق حرية الفكر عند أحدهما ، ثم يزيد على ذلك بالنسبة للزنجي انتشاله من عبادة الأوثان .

ثم هو لا يعوق الرجل العملي الذي يرى حياته في العمل ويعد الوقت من ذهب كالرجل الانجليزي ، وكذلك لا يعوق الرجل الصوفي أو الشرقي المتأمل في بدائع الصنع ، ويأخذ بيد الغربي المأخوذ بسحر الفن والخيال ، وليس هذا فحسب بل هو يستولي على لب الطبيب العصري أيضًا بما فيه من الطهارة المتكررة في اليوم والليلة ، وتناسق حركات المصلي في الركوع والسجود ، وما فيها من نماء للجسم ، وفائدة للصحة الجسمية والنفسية .

وعلى هذا فليس من الجرأة إذن أن نظن إذا هدأت الزوبعة المروعة القائمة ضد الإسلام ، وضمن حق الاحترام لكل الشعوب والديانات ، فسيرى مستقبلا حافلا بأعظم الآمال وأعلاها شأنا ، وإذا ما دخل في الحضارة الأوربية بفضل اشتراكه العظيم في الحوادث التي تقلبها ظهرًا على عقب فسيتضح سناه الحقيقي ، وستعرف الأمم المختلفة حقيقته التي حجبت عنهم زمنًا ، وسيمد الكل يده لمحالفته ، متنافسين في ذلك لأن قيمته قد خبروها ، وعرفوا ما يستكن فيه من وسائل القوة التي لا حد لها ولا نفاذ .

وإذا نهض أتباع محمد عليه السلام وأفاقوا من سباتهم العميق فسيرجع لهم عزهم السالف وتاريخهم المجيد ويصبحون أمة لا تعرف الجور في معاملتها لكل رعاياها ، لا فرق بين مسلم ومسيحي ، ويهودي ووثني ، ويتبوءون مكانهم الذي يليق بمجدهم إن شاء الله : ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً

وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة الممتحنة : ٧] أهـ .

وبعد هذا نحن قطعنا بأن الإنسانية لا يمكن أن تحيا آمنة بغير هذه الدعوة ، كما قطعنا بأن المذاهب البشرية جميعها قاصرة عن تحقيق سلم أو أمن بين بني البشر فما السبيل لتحقيق السلم والأمن والتعارف عن طريق الدعوة الإسلامية ؟ وهل تطلبون بهذا أن تدين الأرض كلها للإسلام حتى يمكن تحقيق السلام إن كنتم ترجون هذا فما وسيلته ؟ وإن لم تكونوا ترجونه فكيف تطلبون تطبيق دين على قوم لم يؤمنوا به ؟

نقول : إن الإسلام دين فطري وواقعي معًا :

فهو فطري يلتقي بفطرة الناس جميعًا وطبيعة الفطرة أنها لا تختلف في قوم عن الآخرين .

وواقعي لأنه أقام شرائعه على الحرية التي تتيح لكل فرد أن يتقبل ما يتقبل ، دون ضغط أو إكراه ، وهذه الحرية تجعل من حق كل فرد أن يدين بما يعتقد أنه الحق ، وبديهي أن الدين الذي يقوم على هذه الحرية لابد أن يكون في تقديره وجود مخالف ، وأن يكون في حسبانه وجود أناس لا يدينون به ، ومن أجل هذا نظمت شرائعه علاقة المسلمين بغيرهم ، على أساس من العدل والحق ، ورعاية العهد والميثاق ، وجعلت شعار المسلم في معاملته مع العدو والصديق : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [سورة المائدة : ٨] .

هذا دين واقعي ، وكما قلت : لا يبني مدينته الفاضلة في مملكة الخيال ، بل يقيمها في واقع حياة الإنسان .

وإذا كان الإسلام قد اعترف أن هناك خلافًا قد يقع بين المسلمين أنفسهم ونظمت شرائعه علاج هذا الخلاف في قوله : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا .. ﴾ [سورة الحجرات : ٩] ، فأولى أن يكون في تقدير الإسلام وجود خلاف بين المسلمين وغيرهم ، أو بين بني البشر جميعًا

وهنا تظهر ميزة الإسلام كدين للإنسانية جميعًا في أنه لا يفرق بين مسلم وغيره في المعاملة ، كما لا يفرق بين جنس وجنس ولون ولون ، بل يجعل العدل أساسًا لمعاملته مع الناس جميعًا ، والرحمة شاملة لكل مخلوق : « إنما الرحمة للكافة » إذن فهناك مفاهيم عامة لابد للإنسانية أن تتعارف عليها ، وهذه المفاهيم توحي بها ضرورة الحياة وتقتضيها دوافع السلم والأمن كما تنشدها فطرة الإنسان وهي تنزع إلى الحرية وتطلب العدل .

فإذا قيل : لك وما تدين ، ودعني وما أدين ، لا يعتدي أحد منا على الآخر بسبب ما يعتقد ، كان معناه ومفهومه إعطاء حق الحياة والحرية للناس جميعًا وكان الإخلال بهذا الحق من أي جانب خروجًا على المفاهيم الضرورية المتفق عليها ، والدين الذي يقر هذا الحق ويوفي به مع غيره جدير أن يكون دين الإنسانية جميعًا لأنه يوفي بالمفاهيم الفطرية الضرورية لبني البشر التي تجمع الإنسانية على وحدة التكريم لحق الإنسان ورعايته من كل جانب .

ولو أن الإنسانية تجردت من هواها وجلست في شبه مؤتمر إنساني عالمي ، تتفق على المفاهيم التي تقيم العلاقات بين الدول والأفراد ، على الحق والعدل والحرية والمساواة ، لوجدت نفسها مع الإسلام وجهًا لوجه سواء أعلنت اعتقادها به أم لم تعلن ذلك ، ولذا كان الإسلام دين الفطرة ، بمعنى أن النفس إذا تجردت عن هواها التقت بالإسلام .

ولقد قلت قبل هذا : إن الإسلام يجعل من المؤمنين قوة آمن ذاتية تقوم على حراسة الحق وحماية العدل ، قوة أمن ترتبط دائمًا بقانونه وقانونه في السلم والحرب : ﴿ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [سورة البقرة : ١٩٠] .

قانونه : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَا أَرَاكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ [سورة النساء : ١٠٥] .

وعقيدة المسلم التي يملها عليه دينه أنه لا ينتصر في حرب باغية ولا يشترك في قتال غير مشروع وهو يؤمن بقول الله : ﴿ إِن تَنصُرُوا ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ

أَقْدَامَكُمْ ﴾ [سورة محمد : ٧] وأوامر الخلفاء لقواد الجيش تفسر فهم المسلمين لهذه الآية . فهذا عمر يقول : « إن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم » . « يا سعد لا يغرنك أن قيل : خال رسول الله وصاحب رسول الله فإن الله لا يمحو السيىء بالسيىء ولكن يمحو السيىء بالحسن ، واعلم أنه ليس بين الله وبين أحد نسب إلا طاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء ، فانظر الأمر الذي كان يفعله رسول الله فافعله » .

ومن هنا يكون تقرير المفاهيم مع قيام القوة التي تحول دون التمرد عليها ، والإخلال بها ، ما تقتضيه واقعية هذا الدين ، وأنه لتنظيم شئون البشر ، وهم ليسوا ملائكة مطهرين : ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [سورة التحريم : ٦] .

والإنسانية وقد أتيح لها أن ترى من أسرار الكون ووحدته وتشابكه ما ترى لا يستعصى عليها أن تقيم وحدة إنسانية تتضح معها المفاهيم التي تصون حرية الإنسان وكرامته ، لا يستعصى عليها أن تتعارف وأن تتعاون على أسس فطرية ، ولها من التجارب ومن سوء الواقع ما يدفعها إلى صدق التفاهم ، وتقبل الحقائق لأمنها ورعاية لسلمها ، وحفاظًا على حاضرها ومستقبلها .

ولقد قلت : إن اللقاء مع الإسلام هنا يتم بشكل طبيعي ، إذا تجردت الإنسانية من هواها ، والتبعة هنا تلقى على المؤمنين بالإسلام ، وعليهم أن يخلصوا في أخذ أنفسهم به ودعوة الإنسانية إليه ، ونحن في عصر تبدو فيه الإنسانية وكأنها في بيت واحد ، فلم تعد هناك حدودٌ أو سدود ، والأثير ينقل إليك أنباء الإنسانية ويريك أخبارها أينما كنت ، فما أيسر انتقال المعرفة وما أسرع أسباب التعارف ، ولا يحتاج الأمر إلّا إلى صدق الداعين وإخلاصهم ، صحيح أنهم في ضعف وغيرهم في قوة ولكن هذا الغير له من مرارة التجربة ومن إدراك الواقع ومن الحاجة إلى الأمن والشوق إلى السلم ما يجعله يتقبل في يسر كل دعوة صادقة أو فكرة راشدة ، فإذا أضفنا إلى ذلك ميزة الإسلام في يسره وفطرته وصدقه ألفينا أن الأمر من جميع جوانبه يقتضي الغيورين على مصير الإنسانية ، وعلى مقدرات البشر ، وأمانات السماء ، أن

يجندوا أنفسهم في إخلاص وصدق لهذه الأمانة الغالية وهم إن فعلوا جنبوا أنفسهم ، وجنبوا الإنسانية معهم ويلات الحرب المدمرة ، والخراب المسيطر : ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [سورة الأنفال : ٧٣] .

إنه دين السلام والأمن والكفاية والعدل ، سلام تردده القلوب وتنطق به الألسنة في مجال الذكر المتصل ، واللقاء البار ، فتحية العباد في الدنيا « سلام » ، ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ ﴾ [سورة يونس : ٢٥] ، ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة يونس : ١٠] .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *